

أحبك يا شمس الزمان وبدره وإن لآمتي فيك السها والفرأقُد

فهو شمس الزمان وبدر الوجود ، ولواء الدين وحسام الملك ؛ وهو محض الحلم في محض القدرة ، يفوق الناس رأياً وحكمة كما يفوقهم حالاً ونفساً ومحتدأ . إنه حامي الثغور وقائد الكتائب وبطل الأبطال . وسيف الدولة فوق ذلك كله مجير الشعراء ينيلهم من عطاياه وجوائزه ، حتى قال فيه أحد المؤرخين إنه كان يهدم قرية ليجيز شاعراً ، ولذلك قصده المتنبي وصارحه بحاجته إلى المال ، وطلب إليه ضيعة أو ولاية وإقطاعاً كما طلب إلى غيره من الملوك ، فقال يخاطب سيف الدولة :

أجزني إذا أنشدت شعراً فإنما      بشعري أتك القائِدون مُرددا  
تركتُ السرى خلفي لمن قلَّ ماله      وأنعلتُ أفراسي بنعمتك عَسجدا  
إذا سأل الإنسانُ أيا مة الغنى      وكنت على بعد جعلتك موعداً

وقد اعترف الرجل بأنه طلب ونال فمخلف الفقر وراءه وأنعل أفراسه عسجداً بفضله ، وبلغ إلى الغنى ، فلم يخف سعيه وراء المال والمجد ، ومدح ديوان يعدد أجداد سيف الدولة ومفاخره في معاركه وغزواته ، فيخفف الانكسار ويبسط الانتصار ، وكأنه صحيفة شعرية لتاريخ هذا الرجل ، أو سفر ألفه في مدحه وسيرورة ذكره كما ألف القاضي ابن شداد في صلاح الدين ، أو ابن قاضي شعبة في نور الدين ، أو كما يصنع الغربيون اليوم في نشر محامد المترجمين ، لم يفادر كبيرة ولا صغيرة من حياته إلا صنع منها موضعاً للمديح ، حتى جعله أعظم العرب قاطبة ، بل إن العظماء يتمنون في عصورهم كلها شاعراً كالمثني يرفع ذكرهم ويشيد بماثرهم ، ولكن أنى للعصور أن تلد لكل جيل مداحاً كأبي الطيب ؟ وهو مع ذلك يأسف أنه لم يستوعب كل مزايا سيف الدولة ومناقبه ، فيقول :